محاضرة 3: الحجاج في البلاغة العربية القديمة

تمهيد

ارتبطت الممارسة الحجاجية في التراث العربي بالبلاغة التي نشأت في أحضان الشعر وما يتوفّر عليه من أساليب، وقد برع فيه العرب حتّى غدا لسان حالهم في حلّهم وترحالهم، في سلمهم وحربهم، وميداناً لمفاخراتهم ومحاوراتهم ولخصوماتهم النقدية.

1-البلاغة والحجاج: تطوّرت البحوث والدّراسات التي اتّصلت بالقرآن الكريم لغة وإعجازا وساهمت في تطوير الدّرس البلاغي العربي، وآلياته الحجاجية، إلى جانب التطوّر العلمي والمنهجي الذي صاحب دراسة اللغة والتقعيد لها، فبرز فرسان في هذه الساحات امتشقوا سيف البيان العربي وسحره، وأعملوا العقل مستفيدين من البحوث الفكر اليوناني والفارسي، نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر:

أ- **الجاحظ (ت255 ه):** الذي قدّم الحوار والحجاج على صليل السيوف، لانتمائه المذهبي إلى المعتزلة*، وهي فرقة تعتبر اللغة والبلاغة سلاح المناظرين والمجادلين، فتصدّر للدفاع عن مذهبه بتمحيص نصوص الخصوم والبحث عن الآليات الكفيلة بدحضها، ويعبّر **محمد الطلبة** عن ذلك بقوله:«في هذا الجو الفكري الجديد يظهر الجاحظ مدافعا عن الحوار وثقافته ومحاولاً وضع نظرية لبلاغة الحجاج والإقناع يكون مركزها الخطاب اللغوي بكل ما يصاحبه من وسائل إشارية ورمزية، ودلالات لفظية وغير لفظية، وأساسها ـ أي البلاغة ـ مراعاة أحوال المتخاطبين»

ويرى بعض الدارسين أنّه أول مفكّر عربي اهتم بالحدث الكلامي ومنهم الباحث **حمادي صمود** الذي يقول عن **الجاحظ:** «هو أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدّر أنّ الكلام... يُنجز بالضرورة في سيّاق خاصّ يجب أن تُراعى فيه بالإضافة إلى الناحية اللّغوية المحضة، جملة من العوامل الأخرى كالسّامع والمقام وظروف المقام.

وهذا الكلام عند الجاحظ يضطلع بوظيفتين أساسيتين، أولاها الوظيفة الخطابية

---

* المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثّرها ببعض الفلسفات المُستورَدة، عُرفوا بالمعتزلة بعد أن اعتزل **واصل بن عطاء** حلقة **الحسن البصري** وشكّل حقلة خاصّة به، لقوله بالمنزلة بين المنزلتين فقال الحسن: "اعتزلنا وأصل". وفي العهد العباسي برز المعتزلة في عهد المأمون حيث اعتنق الاعتزال عن طريق بشر المريسي وثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد وهو أحد رؤوس بدعة الاعتزال في عصره ورأس فتنة خلق القرآن، وكان قاضياً للقضاة في عهد المعتصم.

وقد برزت في "البيان والتبيين" في المواطن التي تحدّث فيها عن الخطابة، باعتبارها نوعا من أنواع الكلام، والخطيب باعتباره أنموذجا للمتكلم، وعبّر عنها بمصطلحات من حقل دلالي واحد تجري وحداته إلى الغاية نفسها، ألا وهي: الإقناع، والاحتجاج، والمنازعة، والمناظرة، وكل ما يدور في هذا الفلك.

ويقول **شوقي ضيف** عن ممارسة الجاحظ للحجاج: «وقد تربّى في هذه البيئة على يد أستاذه النظّام فأخرجه لسِنا جدِلا، يعرف كيف يحاور ويداور، وكيف يستعين بالمنطق الصحيح، وكيف يستعين بالمنطق السقيم ليدعم رأيه، وينصر فكرته... وقد جعله ذلك يمتاز عن كتّاب عصره باستخدام المنطق... فهو دائما يعرض أفكاره في صورة حجاج يقوم على براهين وأدلّة ومقدّمات وأقيسة.

وانفراد الجاحظ بهذه المكانة ناجم عن تميّزه في هذا الفن (الحجاج) وتبحّره فيه، وامتلاكه القدرة على البرهان والاستدلال إلى جانب القدرة اللغوية، التي جعلته محاججا من الطراز الأول.

فكتاب "البيان والتبيين" محاولة لوضع نظرية حجاجية، أساسها الفصاحة، وإحكام الحجّة، ومعرفة أحوال المتخاطبين، ومستويات تقبّلهم، واختيار المقال المناسب للمقال، فعماد البلاغة تمام الآلة واحكام الصنعة.

ويرى **محمد سالم الطلبة** أن «المتمعّن في "البيان والتبيين" سيقتنع بأنّه كان يمثّل موقفا حضاريا ومحاولة لإرساء مجتمع عقلاني تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق، أو الاستمالة بشتّى صور الدّلالة والتعبير الاجتماعي.

وربّما يكون لتناول الجاحظ للحجاج عيب واحد، يتمثل في أنّه لم يكن متناسقا في مؤلفاته، إلاّ أنّ ذلك لا ينقص من قيمة هذا العمل، بل يبقى من بين أهمّ الأعمال الحجاجية في التراث العربي، ممارسة وتنظيرا.

ب-**أبو إسحاق بن إبراهيم بن وهب** (ت335ه): ويعدّ من بين الذين تناولوا الحجاج في التراث العربي، وذلك من خلال كتابه المسمى **"البرهان في وجوه البيان"** الذي اهتم فيه بالبيان، وعرّف فيه القياس تعريفا دقيقا جعله من صميم النظرية الحجاجية؛ حيث يقول: «وليس يجب القياس إلاّ عن قول يتقدّم، فيكون القياس نتيجته، كقولنا: إذا كان الحي حيا متحرّكا، فالإنسان حيّ، وربّما كان ذلك في اللسان العربي مقدّمة أو مقدمتين، أو أكثر على قدر ما يتّجه من إفهام المخَاطب. فأمّا أصحاب المنطق فيقولون: إنّه لا يجب القياس إلاّ على مقدّمتين لإحداهما بالأخرى تعلُّق... وإنما يُكتفى في لسان العرب بمقدّمة واحدة على التوسّع وعلم المخَاطب. وهذا النص شاهد على وعي ابن وهب بالبعد الحجاجي للقياس.

كما وقف على ما يقوم به الحجاج، وهو الانتقال من المقدّمات إلى النتائج، أو ما يسميه ديكرو(Ducrot) بـ"الحركة الحجاجية. واهتمّ في برهانه بالجدل وأدب الحديث، وجعل الجدل مجادلة ليدل على طابعه التفاعلي الذي لم ينته إليه سابقوه، وفي تعريفه للجدل والمجادلة يقول: «قول يقصد بهما إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين»[1]، وبهذا يتضح فضل ابن وهب في البحث الحجاجي ووعيه المبكر بحقيقة الممارسة الحجاجية.

[1] إسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص:86.